ألفه في موضوع ديني بحت،ورغم ذلك لا يقل بلاغة وفصاحة واستخداماً للمحسنات البديعية والكنايات والاستعارات والتشبيهات عن أي كتاب أدبي ، فالكتاب مكتوب بلغة أدبية راقية وأسلوب فني جذاب، ويرى الأستاذ آسي ضيائي أن هذا الكتاب كان أول خطوة للتصالح بين الفكر والأدب بعد قطيعة دامت زمناً طويلاً.ويضيف الأستاذ آسي ضيائي قائلاً أن ما كتبه الإمام المودودي في"تفهيم القرآن"يعد أدباً بكل المعايير الفنية، استخدم فيه الأساليب البلاغية المختلفة. إن "تفهيم القرآن" رد قوي على كل من يريد أن يفصل الدين ومباحثه عن الأدب[38]

إن أدبية "تفهيم القرآن" من أهم خصائص هذا التفسير، يستطيع أن يلمسها كل من يملك ذوقاً أدبياً. ومن الجدير بالذكر هنا أن علماء شبه القارة –عموماً– كان لهم دور ملموس في تطوير اللغة الأردية وآدابها، ومن هؤلاء الإمام المودودي الذي ساهم في الارتقاء بهذه اللغة وآدابها من خلال تفسيره الفريد من نوعه. ومما يلاحظ على أردية الإمام المودودي وجود كلمات عربية كثيرة فيها، وفي هذا الصدد أود أن أشير إلى أن اللغة الأردية لغة حديثة نسبياً تتنازعها ثلاثة اتجاهات أو لغات، هي: أولاً اللغة العربية التي اكتسبت منها اللغة الأردية ألفاظاً كثيرة، وأخذت منها خطها كذلك، وثانياً اللغة السنسكريتية، لغة الهند القديمة التي كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة، وانحصرت في كتب الهندوس المقدسة، ورغم ذلك تحاول الآن أن ترفع رأسها تعصباً، وقد بدأ الهندوس يحيون أيضاً لغة الباشا، وهي لغتهم القديمة التي عفا عليها الزمن، ويكتبونها بحروف خط اسمه "ناكري" وهو خط قديم أيضاً، رغم أن الهند كلها تقريباً كانت تكتب بالحروف العربية أيام الحكم الإسلامي الذي دام قرابة ثمانية قرون، وقد استطاعوا في الهند الآن أن يستبدلوا حروف الخط الناكري بالحروف العربية للغة الأردية التي يسمونها –تعصباً– اللغة الهندية. واللغة الثالثة التي تتنازع الأردية هي اللغة الإنجليزية التي بدأت تؤثر بقوة في اللغة الأردية وفي خطها أيضاً.[39]

وللإمام المودودي طريقة خاصة في الرد على الشبهات والتأويلات الباطلة التي أثارها أعداء الإسلام وأصحاب الفرق الضالة، وإبراز موقف الإسلام من الفلسفات الجاهلية القديمة والمعاصرة. ومما يميز تفسيره اهتمامه الخاص بالأمثال، فهو يسير على نهج القرآن في الاستعانة بالأمثال في توضيح المعاني وتقريبها إلى الأذهان، ونظراً لأهمية هذه الأمثال قام الأستاذ أختر حجازي بجمع الأمثال الواردة في هذا التفسير في كتاب.[40] والمودودي أول من وضع فهرساً للموضوعات الواردة في "تفهيم القرآن"، وهذا الأمر ربما لا يعد غريباً اليوم، فكثير من الكتب التي تصدر هذه الأيام توضع لها فهارس متنوعة، ومنها فهرس الموضوعات، ولكن الأمر كان غريباً في زمن الإمام المودودي، فهو أول من وضع هذا الفهرس لموضوعات "تفهيم القرآن" بنفسه، وسماه "الإشارية".[41]

خلاصة البحث:

صدّر الإمام المودودي إحدي مقالاته بهذه الآية: "إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً"، وذلك حين أحس ببعد قومه عن القرآن، وأن مسئوليته كبيرة إزاء هذا الأمر الخطير، فعكف على تأليف تفسيره الذي بين أيدينا.[42]

حقق الإمام المودودي بتفسيره الذي كتبه في ثلاثين عاماً أهدافاً كبيرة، أهمها:

1- بلّغ دعوته بأحسن أسلوب من خلال هذا التفسير، فدعوته هي دعوة القرآن.

2- قرّب القرآن إلى نفوس الناس وعقولهم، من العوام والخواص، ومن كافة التخصصات، ووضعه في متناول الجميع، بعد أن كان فهمه حكراً على العلماء والشيوخ لا ينازعهم فيه أحد.

3- استطاع الإمام المودودي –إلى حد بعيد– أن يقلل المسافات بين الناس، وأن يوحدهم على القرآن.

4- وضع الإمام المودودي أهداف القرآن نصب عينه وهو يكتب تفسيره "تفهيم القرآن".

5- واجه التحديات المعاصرة التي هاجمت المسلمين بكل جرأة وقوة من خلال هذا التفسير.

6- يعد هذا التفسير تفسيراً عصرياً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. عصرياً في لغته وفي أسلوبه وفي طريقة عرضه للموضوعات وفي أسلوب تناوله للمشاكل، وتقديم الحلول الناجعة لها من هدي القرآن العظيم.

7- كان الإمام المودودي رحمه الله موسوعة في علوم كثيرة، وقد جمع علمه في هذا التفسير، وهو –أي التفسير– بحاجة إلى دراسات تتناول جوانبه المختلفة، وتستخرج لآلئه المكنونة، على طراز ما فعله الأستاذ خورشيد أحمد من محاولة ترتيب علم الكلام عند المودودي من خلال تفسيره.

8- إن "تفهيم القرآن" ثورة فكرية شاملة غيرت مفاهيم خاطئة كثيرة كانت قد استقرت في أذهان كثير من الناس الذين وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، فتبعوهم وتركوا القرآن مهجوراً.

9- إن "تفهيم القرآن" ليس خاصاً بفئة أو طائفة أو طبقة دون أخرى، فقد استفاد منه الجميع على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم وانتماءاتهم ومهنهم وتخصصاتهم.

يبقى أن نعرف أن هذا التفسير جهد بشرى قابل للخطأ والصواب والإصابة والزلل، وقد أشار بعضهم إلى بعض الأخطاء الطفيفة التي وقع صاحب التفهيم فيها. واقتصاري على ذكر محاسن وخصائص "تفهيم القرآن" لا يعني خلوه من المثالب والعيوب، ولكنها بشكل عام أخطاء بسيطة وعيوب قليلة.

إن لهذا التفسير مكانة لدى أهل شبه القارة وكل من يعرف اللغة الأردية، وإليكم فيما يلي آراء بعض الشخصيات الهامة في "تفهيم القرآن":

- قال الدكتور اشتياق حسين قريشي، رئيس جامعة كراتشي سابقاً: "نحس حين نقرأ "تفهيم القرآن" أن مولانا المودودي جند كل إمكاناته و طاقاته لتسهيل فهم القرآن للناس، ولإقناعهم بأن الإسلام نظام شامل وكامل للحياة".[43]
- وقال القاضي بديع الزمان كيكاوس، القاضي في المحكمة العليا في باكستان: "كثير من القضاة والمحامين يستفيدون من "تفهيم القرآن"، ودليل ذلك أن صاحب التفهيم كثيرا ما يُذكر في أحكام المحاكم العليا".[44]
- وقال العميد محمد أكرم: "لا يُسأل عن أهمية "تفهيم القرآن" إلا رجل كان ملحداً، ثم عرف الحقيقة بعد قراءة هذا الكتاب".[45]
- وقالت الأستاذة زكية فاطمة رئيسة الجمعية الإسلامية في باكستان –قسم الطالبات سابقاً (الجناح الطلابي التابع للجماعة الإسلامية): يشهد آلاف الشباب بالدور العظيم الذي قام به "تفهيم القرآن" في إنقاذهم من مخالب العلم اللاديني والحضارة اللادينية".[46]

- وقال مولانا جراغ وهو من أكبر تلاميذ مولانا أنور شاه الكشميري: "قام صاحب التفهيم بدور عظيم في مواجهة فتن هذا العصر بأسلوب حكيم، والرد عليها".[47]

كان الإمام المودودي قد عزم بعد انتهائه من تفسيره الخالد على الشروع في تأليف كتاب في السيرة، ثم بعد ذلك كان ينوي أن يرتب مجموعة من الأحاديث مع الشرح في كتاب، ولكن الأجل عاجله، فانتقل إلى الرفيق الأعلى تاركاً خلفه ذخيرة علمية تحتاج منا اهتماماً كبيراً.

الهوامش

[1] - سيد محمد علي إيازي، "تفهيم القرآن، إيك عصري وعمراني تفسير" (بالأردية) مقال ضمن العدد الخاص لمجلة "ترجمان القرآن" عن السيد أبي الأعلى المودودي، المجلد 131، العدد 5، الصادر في شهر مايو من عام2004، ص298.

[2] - "الرسائل والمسائل" مقال لكاتب البحث نشر في "صحيفة العرب" اليومية الصادرة من دولة قطر، العدد 7468 بتاريخ 22 نوفمبر عام 2008م.

[3] - "Islamic Perspectives" Studies in Honours of Mawlana Sayyid Abul A,la Mawdudi, Edited by: Khurshid Ahmad & Zafar Ishaq Ansari, 1978, The Islamic Foundation, UK in association with Saudi Publishing House, Jeddah. P.361

[4] - "مولانا مودودي أبني أور دوسرون كي نظر مين" (بالأردية) الأستاذ محمد يوسف بهته، إدارة معارف إسلامي، لاهور، 1984م، ص396.

[5] - "مولانا مودودي" (بالأردية) الأستاذ ملك غلام علي، مقال ضمن العدد الخاص لمجلة "آيين"، المجلد 11، العدد 7، الصادر بتاريخ 15 ديسمبر 1972م، ص184.

[6] - ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه" كنا إذا تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها. قيل لشريك: من العمل؟ قال: نعم. أخرجه الحاكم والبيهقي.

[7] - مجلة "الدعوة" كان يصدرها الإخوان المسلمون، العدد الصادر في الأول من شهر ذي الحجة عام 1399هـ، ص4

[8] - طبعت الكتاب ونشرته "دار المصنفين" في أعظم كره في عام 1930م. راجع التفصيل في: آباد شاه بوري، "تاريخ جماعت إسلامي" (بالأردية) الجزء الأول، إدارة معارف إسلامي، لاهور، 1989م، ص199.

[9] - "تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب" (بالأردية) الأستاذ خورشيد أحمد، طبع إدارة "منشورات"، ص9

[10] - "الأستاذ أبو الأعلى الإمام المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم" الأستاذ أليف الدين الترابي، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- قسم الدراسات العليا الشرعية- فرع الكتاب والسنة في عام1403هـ، ص289- 297.

[11] - "في أي ظروف كتبت تفهيم القرآن" (بالأردية) خطبة للإمام المودودي، مجلة "آيين"، منشورة في العدد الخاص بتفهيم القرآن، ص115.

[12] - "Islamic Perspectives" Studies in Honours of Mawlana Sayyid Abul A,la Mawdudi, Edited by: Khurshid Ahmad & Zafar Ishaq Ansari, P. 364

[13] - أبو الأعلى المودودي،"ترجمة قرآن مجيد، مع مختصر حواشي" (بالأردية)، إدارة ترجمان القرآن (برايويت) ليميتيد، لاهور، ط10، 1992م.

[14] - المرجع السابق، ص310.

[15] - المرجع السابق، ص310- 312.

[16] - "في أي ظروف كتبت تفهيم القرآن" خطبة للإمام المودودي، ص115.

[17] - "الأستاذ أبو الأعلى الإمام المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم" الأستاذ أليف الدين الترابي ، ص308.

[18] - المرجع السابق، ص314.

[19] - "تفهيم القرآن إيك كتاب انقلاب" للأستاذ خورشيد أحمد، ص14.

[20] - "في أي ظروف كتبت تفهيم القرآن" خطبة للإمام المودودي، ص115.

21 - الأستاذ خورشيد أحمد،"تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب"، ص14.

22 - "الأستاذ أبو الأعلى المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم"، الأستاذ أليف الدين الترابي، ص313.

23 - "تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب"،ص19.

24 - "تفهيم القرآن" (بالاردية) الإمام أبو الأعلى المودودي، المجلد الأول، المقدمة، مكتبة تعمير إنسانيت، لاهور، ص20.

25 - المرجع السابق، ص20.

26 - محمد قسيم،"منهج المودودي في تفسير القرآن"، رسالة ماجستير قدمت في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية – إسلام أباد في عام 1989م، ص96- 99.

27 - "تفهيم القرآن"، المجلد الأول، ص11.

28 - الأستاذ أليف الدين الترابي ،"الأستاذ أبو الأعلى المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم"، ص329.

29 - الأستاذ سيد محمد علي إيازي، "تفهيم القرآن، إيك عصري وعمراني تفسير"، ص287.

30 - "تفهيم القرآن إيك كتاب انقلاب"، ص23- 24.

31 - المرجع السابق، ص24 -25.

32 - المرجع السابق، ص25- 29.

33 - "الأستاذ أبو الأعلى الإمام المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم" الأستاذ أليف الدين الترابي، ص330- 353.

34 - المرجع السابق، ص435- 445.

35 - انظر كتاب "سفر نامة أرض القرآن" (بالأردية) للأستاذ عاصم الحداد.

36 - "ترجمة المودودي لمعاني القرآني الكريم"، د. مصباح الله عبد الباقي، بحث منشور في حولية الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام أباد، العدد الخامس عشر والسادس عشر، لعامي 2007-2008م، ص11- 15.

37 - المرجع السابق، ص23- 47. و"منهج المودودي في تفسير القرآن" الأستاذ محمد قسيم، ص92- 94.

38 - "تفهيم القرآن كي أدبي حيثيت أو أهميت" (بالأردية) الأستاذ آسي ضيائي، مقال منشور ضمن العدد الخاص لمجلة "آيين" عن الإمام المودودي، ص103.

39 - انظر التفصيل في "الحرف القرآني في باكستان بين فكي الرحى"، د. محمد علي غوري، بحث ألقاه في الندوة شبه الإقليمية حول إدراج لغات الشعوب الإسلامية في آسيا في مشروع الحرف القرآني" نظمته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الأيسسكو) الدولية في الفترة من 5-7 نوفمبر 2008م في كوالالامبور – ماليزيا، ونشرته في كتاب الندوة الخاص. (والبحث منشور في الشبكة الدولية).

40 - "تمثيلات قرآني" (بالأردية) جمع فيه الأستاذ أختر حجازي الأمثال الواردة في تفهيم القرآن، مكتبة تعمير إنسانيت، لاهور،1982م.

41 - "تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب"، الأستاذ خورشيد أحمد، ص29- 30.

42 - "تاريخ جماعت إسلامي" الشيخ أباد شاه بوري، ص214.

43 - "حديث أهل نظر"، مجلة "آيين"، العدد الخاص بتفهيم القرآن، ص266.

44 - المرجع السابق، ص262.

45 - المرجع السابق، ص277.

46 - المرجع السابق، ص286.

47 - المرجع السابق، ص247.